

جبران خليل جبران

حديقة النبي

الكتابة والثقافة



0184045

Biblioteca Alexandrina

89

جبران خليل جبران

حديقة النبي

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

حديقة النبي

١

عاد المصطفى . المختار . المحبوب الذي عاش ضحى ومثلقاً حتى أتاه
يومه . إلى جزيرة مولده في شهر تشرين ، شهر التذكار .
وما ان اقتربت سفينته من المرفأ حتى انتصب واقفاً على مقدمة لها ،
ووقف حوله بحارته . وقد أفعمت قلبه الفرحة بقاء الوطن .
وراح يتكلم . والبحر يهدر في صوته . ويقول : « ها هي ذي جزيرة
مولدنا . لقد لفظتنا الأرض هنا . أغنية ولغزاً : أغنية تنسأى إلى السماء .
ولغزاً تحاربه الأرض . وأي شيء هناك بين الأرض والسماء يُقيل الأغنية
ويحلّ اللغز سوى هوانا ؟ »

« لقد لفظنا البحر مرة أخرى إلى هذه الشطآن . وما نحن سوى موجة
أخرى من موجاته . دفع بنا لردّ كلامه . ولكن كيف لنا أن نقوم بذلك ،
ما لم نحطّم تناغم قلوبنا على الصخر والرمل ؟ »

« تلك هي شريعة البحر والبحارة ، فإذا أنت أردت الحرية كان عليك
أن تحوّل حاجات الحياة إلى ضباب . إن ما لا شكل له يتشّد أبدأً أن يكون
ذا شكل . حتى السديم الذي لا يُعد . يودّ أن يتحوّل إلى شمسٍ وأقمار .
ونحن الذين طلبنا الكثير وعدنا الآن إلى الجزيرة قوالب صلبة ، علينا أن
نصبح ضباباً مرة أخرى ، ونأخذ في التعلم من البدء . وأي شيء هناك ينمو
ويشهر في الأعالي إلا وهو يتحطّم عند افترق الحرية . »

« سنظلّ بعد اليوم ، وإلى الأبد ، ننشد الشيطان التي نملك فيها أن
نغنى ، ونجد عليها من يستمع إلينا . ولكن ما القول في الموجة التي تحطم ولا
من أذنٍ تسمع تحطمها ؟ إنّ ما يحتضن أسانا الأعماق ويغذّيه هو تلك
الأنغام التي لا يسمعها أحد ، وهذه الأنغام أيضاً هي التي تحفر في قرارة
أرواحنا لتصوغ مصائرنا وتقولبها . »

وعند ذاك تقدّم أحد بحارته وقال : « لقد قدّمتَ أيها المعلم حينئذ إلى
هذا المرقأ ، وما نحن وصلنا ، ومع ذلك تتحدّث عن الأسى والقلوب التي
يتظّرها التحطّم . »

أجابه قائلاً : « ألم أتحدّث عن الحرية ، وعن الضباب الذي هو حريتنا
الكبرى ؟ ومع ذلك ، فلنّني بالمرحج إلى جزيرة مولدي حتى كما لو
كنت طيف ذبيح جاء يركع أمام أولئك الذين ذبحوه . »

وتكلّم بحار آخر وقال : « ها هي الجماهير على الشاطئ . لقد تنبّأت ،
في صمتها ، حتى عن يوم قدومك وساعته ، واجتمعت من حقولها وكرومها ،
لانتظارك ، تعبيراً عن حبّها واشتياقها . »

وألقى المصطفى من بعيد ، بنظرة على الجماهير ، فعاودت قلبه ذكريات
حينئذ إليه ، وصمت .

وارتفعت لحظته صرخة من أعماق الشعب ، وكانت صرخة ادّكارٍ
واستعطاف .

ونظر إلى بحارته وقال : « وما الذي أتيت به إليهم ؟ صياداً كنت أنا
في أرض نائية . وقد أفرغت بزم وتصميم جمعيتي من السهام الذهبية التي
قدّموها ليّ ، غير أنّي لم آتهم بالهيئة ما ، ولم أتبع السهام ، ربما كانوا
الآن قد انتشروا تحت الشمس مع ريش النسر الجريحة التي لا تهوي على
الأرض . ولربما هوت رؤوس السهام بين أيدي أولئك الذين هم في حاجة

إليها . لينالوا بها خبزاً وخمراً .

« أنا لا أعرف ما حلّ بها وهي تطير : ولا أين طارت : غير أنني أعرف أنها مالت وهي في السماء .

« حتى ولو كان الأمر كذلك . لا يزال الحبّ ملء يدي : وأنتم يا بحارتي لا تزالون توجّهون شراع رؤيتي في البحر . ولن أكون أبكمّ . سوف يرتفع صراخي حين تضغط يد الفصول على عنقي . وسأغني كلماتي حين تلهب شفتاي . »

وسرى الاضطراب إلى قلوبهم . وهو يقول خم هذه الأشياء : وتكلم أحدهم قائلاً : « علّمنا أيها المعلم كل شيء ! ربما أدركنا ما تقول لأن دمك يجري في عروقنا . وأنفاسنا من عبق طيبك . »

عند ذلك أجابهم : والرياح تهبّ في صوته . وقال : « أنراكم جنّم بي إلى جزيرة مولدي لأكون معلماً ؟ أنا ما زلت حتى الآن خارج قفص الحكمة ولاني لصغير السنّ . طريّ العود إلى درجة لا تتبجح لي أن أتكلّم عن أي شيء . إلا عن نفسي التي ستظلّ إلى الأبد . النداء العميق للعميق .

« دعوا ذلك الذي يبتغي الحكمة . ينشدها في زهرة الأفحوان الأصفر ، أو في حفنة من الطين الأحمر . فأنا ما زلت حتى الآن المغنيّ : وسأغني جمال الأرض . وحلمكم الضائع الذي ينتزّه النهار كله بين رقدة اليقظة وورقة الكرى . غير أنني لن ألوّ تحديقاً إلى البحر . »

ودخلت السفينة المرفأ ، وبلغت الشطّ : وهكذا وصل إلى جزيرة مولده . ووقف مرة أخرى بين أهله : وارتفعت صرخة عالية من أعماق قلوبهم . اهتزّت لها صحراء حينه في قرارة سريرته .

وخيم عليهم الصمت وهم يتوقعون سماع كلماته : ولكنه لم يستجب لهم : لأن كتابة الذكرى أفعمت نفسه ، وقال في سرّه : « ألم أقل لنتي

سأعني ؟ ها أنا لا أملك إلا أن أفتح شفتي ، ولصوت الحياة أن يغدو ويروح مع الريح لينعم بالفرح ويعين عليه . »

وعند ذاك ، تقدمت كريمة ، تلك الصبيّة التي كانت تلعب معه في حديقة أمه ، وقالت : « أخفيت عنا وجهك اثني عشر عاماً ، ومنذ اثني عشر عاماً ونحن نلتفت لسماع صوتك . »

ونظر إليها ببرقة متناهية ، لأنها هي التي أطبقت جفون والدته حين أفلتها أجنحة الموت البيضاء إلى السماء .

ثم أجاب قائلاً : « اثنا عشر عاماً ؟ قلت : منذ اثني عشر عاماً يا كريمة ؟ أنا لا أقيس حنيني بمقياس المجرة ، ولا أرجع عمق الصدى منها ، وذلك لأنّ الحب عندما يكون حبّ حنين يستنفد مقياس الزمن ، وترجيحاته . هنالك لحظات تحمل دهوراً من فراق ، والنوى مع ذلك ليس إلاّ

ضئى الروح ، وربما نحن لم نبتعد قطّ عن بعضنا . »
ونظر المصطفى إلى الناس ، وأبصر جمعهم كلّهم ، شيئاً وشباناً ، هزالي ومعافين ، أولئك الذين لفحتهم الشمس والريح ، والذين تبدو عليهم نصرة النعيم ، ورأى على وجوههم شعاعاً من الشوق والسؤال .

ونكّس أحدهم فقال : « لقد خيّبت الحياة ، أيها المعلم ، آهنا ورغائبنا ، خيبة مريرة ، وإن قلوبنا لواجفة ، فلا ندرك بعد شيئاً . أرجوك أن ترفقه عنا ، وتكشف لنا معاني أحزاننا . »

واختلج قلبه بالرأفة وقال : « الحياة أقدم من جميع الكائنات الحية ، حتى الجمال تجنّح قبل أن يولد الجميل على الأرض ، والحقيقة منذ كانت حقيقة ، عُرِفَتْ ووُجِدَتْ من نفوّه بها .

« الحياة تتغنّى في صمتنا ، وتعلم في كرانا ، وحتى عندما نُغلب على أمرنا ونهوي ، تظلّ الحياة ساميةً معتليةً عرشها . وعندما نبكي ، تبسم

الحياة للنهار . وتكون حرة حتى عندما نجرّ سلاسل عبوديتنا .
« كثيراً ، نطلق على الحياة أفضع النعوت والأسماء . عندما نكون
نحن أنفسنا في ظلمة ومرارة . وكثيراً ما نحسبها جوفاء لا جدوى فيها .
عندما تنبّه أرواحنا ضالّة في التفار الجرداء . وتكون قلوبنا سكرى بغمرة
الحرص والجشع .

« الحياة عميقة وسامية ونائية غامضة . وإنها مع ذلك لقريبة . وإن
كان نظركم الواسع لا يستطيع أن يبلغ إلا أقدامها . وإن ظلّ ظلّكم يعترض
طلعتها . وإن كان نفّسُ نفّسكم لا يبلغ إلا قلبها . وكان صدى أدقّ
همة منكم يتحوّل إلى ربيعٍ وخريفٍ في صدرها .

« والحياة ممتّعة ومخبّأة . تماماً كما هي روحكم الكبرى ممتّعة وخافية .
عندما تتكلم الحياة . تتحوّل مع ذلك الرياح جميعها إلى كلمات . وحين
تتكلّم ثانية . تتحوّل البسمات على شفاهكم . والدموع في عيونكم .
إلى كلمات أيضاً . وعندما تتغنّى يسمعها الصمّ وترتفع بهم إلى سمائها .
وحين تقبل ماشية يهلّل ذا ذو الأبصار المكفوفة . وتأخذهم الدهشة .
ويتبعون خطاها في رعدة وذهول . »

وانقطع عن الكلام ، وغمر الناس صمت شامل ، وارتفع في فضاء ذلك
الصمت نشيدٌ لا يُسمع . وسرّي عن الحضور ما كانوا فيه من همّ وضيق .

... وكان منه أن تركهم ، وسلك الطريق القويم الذي يقود رأساً إلى
حديقته التي كانت من قبل حديقة أمه وأبيه ، وفيها كانا يرقدان كما كان
يرقد أجدادهما .

وكان هناك أولئك الذين سيأتون من بعده ، ورأى بألم عينه أنها المقرّ
الآخر ، وأنه وحيدٌ فيها ، إذ لم يبق ثمة أحد من أقاربه يحتفل بقدمه
ويقيم مأدبة الترحيب به على طريقة أهله .
إلا أن ربّان سفينته نصحهم قائلاً : «دعوه يتابع طريقته في الحياة ،
وتحملوه ، لأن خبز الوحدة ، وفي كأسه خمر الذكرى التي يحتسيها
وحده . »

وقفل بحاروه راجعين لأنّهم كانوا يعرفون أن أمره كما أنبأهم به
ربّان السفينة ، وكبح أولئك الذين تجمعوا على الشطّ من اندفاعهم نحوه
وعادوا برمتهم من حيث أقبلوا .
ولكن كريمة وحدها تبعته ، بخطى وثيدة ، وفيها توقُّ إلى وحدته
وذكرياته ، ولم تقل شيئاً ، إلا أنها حولت وجهه سيرها نحو بيتها الخاص ،
وفي الحديقة ، في ظلّ اللوزة بكت ، ولم تدر لم تبكي .

وجاء المصطفى ، ولقي حديقة أمه وأبيه . ودخلها : وأغلق بوابتها بحيث لا يستطيع أحد أن يلجها بعده .

وأقام أربعين يوماً وليلة وحده في ذلك المنزل وتلك الحديقة ولم يقد عليه أحد . إذ كانت مقفلة . والكل يعرفون أنه منفرد . وحيد . وعندما انتهت الأيام الأربعون بلياليها فتح المصطفى البوابة : وأصبح في مستطاع الناس أن يدخلوا .

وجاءه تسعة رجال ليقيموا معه في الحديقة : ثلاثة بحارة من سفينته . وثلاثة ممن كانوا يخدمون في المعبد : وثلاثة من رفاقه في اللعب أيام كانوا صبية معاً . وهؤلاء كانوا تلامذته .

وذات صباح ، جلس تلامذته حوله : وكانت عيناه تأتلقان بذكريات بعيدة : وشيمان في أقاصٍ نائية . وخاطبه . أول من خاطبه : ذلك التلميذ الذي كان يدعى « حافظ » : « حدثنا يا معلم عن مدينة أورفليس ، وعن تلك الأرض التي أقمت فيها تلك السنوات الاثنتي عشرة . »

بقي المصطفى صامتاً . وألقى ببصره بعيداً على الروابي : والمدى الأثيري الرحب : وبدأ صمته مشحوناً بصراع داخلي .

ثم قال : « يا أصدقائي وبا رفاق طريقي : ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين .

« ويل لأمة تلبس مما لا تنسج . وتأكل مما لا تزرع ، وتشرب مما لا تعصر .

« ويل لأمة تحسب المستبد بطلاً : وترى الفاتح المدلل رحيماً .

«ويل لأمة تكره الشهوة في أحلامها ، وتعنوا لما في يقطنها .
«ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا مشت في جنازة ، ولا تفخر إلا
بالخرائب ، ولا تنور إلا وعنقها بين السيف والنطع .
«ويل لأمة سائسها ثعلب ، وفيلسوفها مشعوذ ، وفنّها فنّ الترقيع
والتقليد .
«ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطيل وتودّعه بالصغير . لتستقبل آخر
بالتطيل والتزوير .
«ويل لأمة حكماؤها خرس من وقر السنين ، ورجالها الأشداء لا
يزالون في أقمطة السرير .
«ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء ، وكل جزء بحسب نفسه فيها أمة . »

٤

وقال أحدهم : «حدثنا عن هذا الذي يجيش في صدرك الآن . » فنظر
إلى مخاطبه ذاك ، وارتفع في صوته نغم كأنه كوكب يتغنّى ، وقال :
«عندما تكون صامتاً مصغياً إلى ذاتك العميقة ، في حلمك المستيقظ ،
تنثال أفكارك انثيال الثلوج المنسوفة ، وتتهاوى وتنتثر وتلف أصداء فضائلك
بصمت أبيض .
«وأي شيء هي الأحلام المستيقظة سوى غمام يرعم ويفتح في شجرة
سماه قلبك ؟ وأي شيء هي أفكارك سوى الأوراق التي تلروها رياح قلبك
على الروابي وجقوها ؟

« وكما أنت تنتظر السلام حتى يتخذ في سريرتك ما لا شكل له شكلاً : كذلك لا بد أن يتجمع الغيم ويتراكم إلى أن تشكل الأنامل المباركة أمنيته الدكناء : في بلور صغير من شمس وأقمار ونجوم . »
وتناول الحديث عند ذاك سر كيس . وهو الذي خالجه بعض الشك .
فقال : « ولكن الربيع سيأتي . وتذوب ثلوج أحلامنا وأفكارنا : ثم لا يبقى منها أثر . »

فأجابه قائلاً : « عندما يأتي الربيع ليلقي حبيته في الفيض والكرور
الهاجرة ، ستذوب الثلوج في الحقيقة : وتجري سواقي تنشد النهر في الوادي :
وتحمل الكؤوس لسقيا أشجار الآس والغار .
« وكذلك هو شأن الثلج في قلبك : فإنه سيلوب عندما يأتي ربيعك ،
وكذلك يجري سواقي تنشد نهر حياتك في الوادي ؛ وسيلف النهر سرك
ويحملة إلى الخضم الكبير .

« ستذوب جميع الأشياء حين يأتي الربيع وتتحول إلى أناشيد . حتى
الكواكب . وقطع الثلج التي تنهال ببطء على الحقول الفسيحة : ستلوب
في سواقي تترنم . وعندما تشرق شمس « طلعت » على الأفق الأرحب .
أي رواء متجمد لا يتحول بعد ذاك إلى أغنية مناسبة ؟ وأي امرئ منكم لا
يود أن يكون ساقى الآس والغار ؟

« إنه لم يمض عليكم سوى ليلة واحدة : كنتم قبلها تتحركون مع البحر
المائج . بلا ذات ولا شاطئ . ثم نسجت لكم الريح . وهي أنفاس الحياة .
شراعاً من نور على عيها ، ثم جمعتكم يدها ووهبتكم شكلاً : وتطلعنكم
إلى الأعالي برأس شامخ . ولكن البحر تبعكم من بعد ، وظلت أغانيه تفعم
قلوبكم . وسيظل إلى الأبد يحنو عليكم . وإن نسيم ذوي قرباكم . وإلى
الأبد سيظل يناديكم .

« ولسوف تتذكرون على الدوام أعماق فؤاده البارد ، في مناهاتكم بين الجبال والصحراء ، وإنكم ، وإن لم تعرفوا أغلب الأحيان ، لأي معنى تتوقون ، فإنما أنتم تتوقون في الحقيقة ، إلى سلامه الرحب الرتيب .
« وكيف يمكن أن يكون خلاف ذلك ؟ عندما يراقص المطر أوراقاً متناثرة على الراية في الغابة والحديقة ، وعندما ينهال الثلج بركةً ووفاء ، وعندما تقودون قطعانكم في الوادي إلى النهر ، وعندما تلتقي في حقولكم الغدران بأنهار سواقي من بلجين ، وتلتحق بالحلل السندسية في المروج ، وعندما تعكس الأنواء في خمائلكم صورة السماء على الأرض ، وعندما يحجب الضباب في مروجكم لدى المساء ، طريقكم بحجاب شفاف ، يكون البحر في هذه الأوقات كلها ، معكم شاهداً على تراثكم ، ناشداً حقّه في حبكم .
« إنه انبثال الثلج في أعماقكم يهبط على البحر . »

٥

وذات صباح ، عندما كانوا يتمشون في الحديقة ، ظهرت وراء البوابة امرأة ، وكانت كريمة التي أحبها المصطفى كأخت في أيام صباه ، ووقفت دون أن تسأل شيئاً ، أو تقرع البوابة بيدها ، وإنما كانت تحدق سادرة كئيبة في أرجاء الحديقة .
ورأى المصطفى الشوق في جفניה ، فمشى بخطى وثيدة ناعمة ، نحو الجدار ، وفتح لها البوابة فدخلت ، ورحّب بها .
ثم أخذت المرأة مخاطبة قائلة : « ما الذي حملك على هجرنا جميعاً ،

فلا نملك بعد أن نستنير بضياء طلعتك ، ونحن الذين أحبينك ، وانتظرنا بلهفة عودتك وسلامتك ؟ إن الشعب يناديك الآن ، ويودّ سماع حديثك ، وأنا رسولته إليك ، جئت ألتمس منك أن تظهر نفسك للناس ، وأن تتحدث إليهم عما اخترنت من حكمة ، وأن تجبر قلب الكسير ، وتير أذهاننا التي هيمن عليها جنون الظلمات . »

حملك فيها ، وقال : « إذا كنت لا تحسبن الناس كلهم حكماء ، فلا تناديني بوصفي حكيماً ، فأنا ثمرة فجّة ، لا أزال عالقاً بالغصن ، وحتى الأمس لم أكن سوى برعم تفتّح .
« وإياك أن تحسي أحداً منكم مجنوناً ، لأننا لسنا ، في الحقيقة ، حكماء ولا مجانين . نحن أوراق نخضر على شجرة الحياة ، والحياة نفسها فوق الحكمة ، وهي قطعاً فوق الجنون .

« وأنا ، هل هجرتكم ، وعزلت نفسي عنكم في الحقيقة ؟ ألا تعلمين أن ليس ثمة من بعد سوى ذاك الذي لا تملك الروح أن تقطعه بالخيال ؟ وعندما تقطع الروح تلك المسافة ، تصبح هذه المسافة نفسها نغماً في الروح ؟
« إن المسافة التي تفصلكم عن جاركم القريب الذي لا تضادقونه أبعد في الحقيقة ، من تلك التي تفصلكم عن محبوب ، وهو يقيم وراء الأرضين السبع والسموات السبع .

« ذلك بأن الأبعاد لا وجود لها في التذكار ، والمسافة الشاسعة إنما تكون في النسيان ، وهي مما لا يستطيع صوتك ولا عينك اختصاره .
« هنالك طريق سرّية بين شطآن المحيطات وذروة أعلى الجبال ، عليكم أن تقطعوها ، في اللحظة التي تتحدون بها مع أبناء الأرض .
« وهنالك طريق خفية بين معرفتكم وفهمكم عليكم أن تكتشفوها في اللحظة التي تتحدون بها مع الإنسان ، ومن ثمة مع أنفسكم .

« هنالك هوةٌ سحيقة بين اليد اليمنى التي تعطي ، واليد اليسرى التي تأخذ . ولا سبيل إلى إزالة هذه الهوة بينهما إلا بحملهما معاً على العطاء والأخذ في آنٍ واحدٍ ، لأنكم لا تستطيعون التغلب على تلك الهوة إلا عندما تعرفون أن ليس هناك ما تأخذون ولا ما تعطون .

والحق إنَّ أبعد مسافة إنما هي تلك التي تقوم بين رؤياكم في النوم ويقتلكم . وبين ما هو ليس إلا حاجة وما هو رغبة .

ولا تزال هنالك طريق أخرى عليكم أن تقطعوها حين تصبحون مع الحياة شيئاً واحداً : غير أنني لا أقول شيئاً عن تلك الطريق الآن : وأنا أرى أنكم أصبحتم متعبين من السفر . »

٦

ومضى مع المرأة . هو والتسعة . حتى بلغ ساحة السوق . وتحدث إلى الناس ، إلى أصدقائه وجيرانه . وكان الفرح يغمر قلوبهم ويظهر على جفونهم . ثم قال : « أنتم تكبرون في النوم . وتحبون أكل حياتكم في أحلامكم . وذلك لأن كل أيامكم تنفق في الشكر لما نلتم خلال هدأة الليل .

« وإنكم لتفكرون أغلب الأحيان وتقولون عن الليل إنه وقت الراحة مع أنه في الحقيقة وقت السعي والتحصيل .

« النهار يزودكم بقوة المعرفة . ويعلم أناملكم الحذق في فنّ الأخذ ولكن الليل هو الذي يقودكم إلى خزانة كنز الحياة .

« الشمس تلقن جميع الأشياء أن تغذي في نفسها الحنين إلى النور

ولكن الليل هو الذي يرفعها إلى النجوم .

« إنها هداة الليل التي تنسج . في الحقيقة . ثوب العرس على الأشجار في الغابة . والأزهار في الحديقة . وتمتد من ثمة المائدة السخية وتُعدّ غرفة العرس إعداداً مغرياً . وفي جوّ ذلك الصمت القدسي يتكوّن الغدّ في رحم الزمن .

« وهكذا تجدون القوت والكفاية في أنفسكم ، ومن خلال سميعكم . ويظلّ لروح الأحلام ممدوداً . وغرفة العرس مُعدّة ، وإن غبت اليقظة في الفجّة الذاكرة . »

وسكت برهة من الزمن : وهم يتظرون عودته إلى الكلام : ثم نطق ثانية ، وقال : « أنتم أرواح وإن كنتم تتحرّكون في أبدان ، وإنكم لكالزيت الذي يحترق في الظلام : شعلٌ ، وإن حملتم في مصاييح . وإذا أنتم لم تكونوا شيئاً سوى أجساد : فإن موقعي أمامكم وخطابي لإياكم ، لن يكون سوى هراء : كما لو كان ميت يخاطب أمواتاً . ولكن الأمر على غير ذلك : بكل ما هو خالد فيكم إنما هو حرّ آناء الليل وأطراف النهار ، ولا سبيل إلى الحجر عليه وتقييده . لأنّ تلك هي مشيئة القدير الأعلى . أنتم نفْسُ الذي لا يُقبض عليه ولا يمكن أن يزجّ في قفص . شأنكم في ذلك شأنّ الريح . وأنا أيضاً نفْسُ نفْسٍ . »

وانصرف من بينهم يمشي وثيداً . وولج حديثه من جديد . ولكن سرّكيس الذي خامره بعض الريب فيما سمع . تكلم قائلاً : « وما القول في القبح أيها المعلم ؟ إنك لا تذكر القبح أبداً في أحاديثك . »

أجابهُ المصطفى : وكانت كلماته تنهال كالسوط ، وهو يقول : « يا صديقي ! أنتى لامرى أن يدعوك بخيلاً إذا هو مرّ بمنزلك ولم يقرع بابك ؟ ومن هو هذا الذي يزعم أنّك غافلٌ وأصمّ إذا هو كلمك ؟ »

بلسان غريب لا تفهم منه شيئاً ؟
« أليس ما تحسبه قبيحاً هو ذاك الذي لم يجهد قطّ في بلوغه ، ولا تلهفت
قطّ إلى ولوجه ؟
« إذا كان القبح شيئاً ما ، فما هو في الحقيقة ، إلاّ قشرة الصل على
عيوننا ، والوقر في آذاننا .
« لا تدع شيئاً قبيحاً يا صديقي ، سوى الخوف الذي يخالج روحاً ما حيال
ذكرياتها الخاصة . »

٧

وفيما كانوا جالسين ذات يوم في ظلال أشجار الحور ، تكلّم أحدهم
قائلاً : « أنا يا معلم خائف من الزمن . إنه يمرّ بنا ، ويسلبنا صبانا ، فما هو
الشيء الذي يعطيه بدلاً منه ؟ »
أجابه قائلاً : « خذ الآن حفنة من التراب . قد تجد فيها بذرة ، وقد
تجد دودة ، فإذا كانت يدك كبيرة وقوية بما فيه الكفاية . فإن في وسع البذرة
أن تصير إلى غابة ، والدودة إلى جمع من الملائكة . ولا تنس أن السنين التي
حوّلت البذور إلى غابات ، والديدان إلى ملائكة ، إنما يعود أمرها كلّها إلى
هذا « الآن » ، كل السنين قائمة في « الآن » هذا نفسه .
« وأي شيء هي فصول الأعوام سوى أفكارنا تتغيّر وتبدّل ؟ الربيع
يقظة في صدوركم ، والصيف ما هو إلا اعتراف بأثماركم ، والخريف أما هو
العتيق من غنائكم لثريمة لا تزال طفلة في كيانكم ؟ وهل الشتاء ، أنا

أسألكم ، سوى رقدة طويلة تفعمها الأحلام بالفصول الأخرى كلها ؟
ونظر عند ذاك مأنوس ، التلميذ البحت ، إلى ما حوله ، ورأى أغراساً
مزهرة تعلقت على شجرة جميز ، وقال : « ها هي الطفيليات يا معلم . ما
تقول فيها ؟ إنها لصوص ذات أجفان نهكها التعب ، تسلب النور من أبناء
الشمس أولي العزم ، وتباهى بالنسغ الذي يتدفق في أغصان هؤلاء وأوراقهم . »
أجابه المصطفى قائلاً : « كلنا يا صديقي طفيليات ، إننا نحن الذين
نحول المدر إلى حياة نابضة ، لسنا أرقي من أولئك الذين يأخذون الحياة مباشرة
من المدر ، دون أن يعرفوا المدر .

« هل لأم أن تقول لطفلها : « أنا أردك إلى الغابة ، أملك الكبرى ،
لأنك ترهقي قلباً ويدا » ؟

« أم هل للمغني أن يزجر الأغنية التي ينشدتها قائلاً : « عودي الآن
إلى كهف الأصداء الذي أتيت منه ، لأن إنشادك يستهلك أنفاسي ، ؟
« وهل للراعي أن يقول للفصيل الذي أدرك عامه الأول : « ليس لدي
مرعى أستطيع أن أقودك إليه ، وعليك الآن أن تنفصل عن أمك ، وتضحكي
بنفسك في سبيل هذه القضية » ؟

« أصخ يا صديقي ! كل هذه أسئلة تلاقي أجوبتها قبل أن تُطرح .
وهي تتحقق مثل أحلامك قبل أن تنام .

« إننا نعيش بعضنا على بعض وفقاً للشرعة القديمة السرمدية . دعنا نعيش .
هكذا في نعيم الحب . وإننا لنشدد بعضنا البعض في وحدتنا ، ونستكع على
الطريق ، حين لا يكون لدينا موقدة نجلس إلى جانبها .
« إن أوسع طريق ، يا أصدقائي وإخواني ، إنما هو طريق رفاقكم من
الناس .

« وهذه الأغراس التي تعيش على الشجرة ، تمتص حليب الأرض

أثناء هدأة الليل الناعمة ، والأرض بدورها ترضع ثدي الشمس أثناء حلمها الهادئ .

« والشمس ، شأنها شأنكم : وشأني وشأن كل كائن : تجلس مساويةً لغيرها في الشرف ، إلى مأدبة الأمير الأعظم ذي الباب المقنوح أبداً ، والمائدة المملودة أبداً .

« يا صديقي مأنوس ، كل ما هو كائن يعيش على كل ما هو كائن . وكل ما هو كائن يعيش بالإيمان الذي لا ساحل له : على رحمة العليّ الأعلى . »

٨

وذات صباح : والسماء لم تأتلق بعدُ بالنور ، راح الجميع يتنزهون في الحديقة . ويتأملون المشرق : وهم صامتون حيال الشمس الطالعة . وأوماً المصطفى : بعد برهة : بيده وقال : « ليست صورة شمس الصباح في قطرة الندى . أقلّ من الشمس . وانعكاس الحياة في روحكم ليس أقلّ من الحياة .

« إن قطرة الندى تعكس النور لأنها هي والنور شيء واحد : وأنتم تعكسون الحياة : لأنكم أنتم والحياة شيء واحد .

« وعندما ينحسّر الظلام عليكم ، قولوا : « الظلام فجر لما يولد بعد ، وعندما يلفني الليل يجلباه . فإن الفجر يولد في نفسي على نحو ما يولد فوق الروابي . »

« وليست قطرة الندى التي تنداح كرة في شفق الزنبق ، غير شبيهة

بكم ، وأنتم تجمعون روحكم في قلب الله .
« وإن خطر لقطرة الندى أن تقول : « ولكني سأظلّ بعد ألف سنة
قطرة ندى » قولوا لها : « ألا تعلمين أن نور تلك الأعوام كلها يشرق في
دائرته ؟ »

٩

وإذات مساء هبت عاصفة كبيرة على المكان ، وذهب المصطفى
وتلاميذته التسعة ، خلال هبوبها ، وجلسوا حول النار هادئين ، صامتين .
ثم تكلم أحد التلامذة قائلاً : « أنا وحيد . يا معلم ! وحوار الزمن
تمر على صلبري ثقيلة الوطء ، بطيئة الخطى . »
وقف المصطفى ، وانتصب في وسطهم . وقال بصوت يشبه عصف
الرياح الهائجة : « وحيد ! وماذا في الأمر ؟ جئت إلى هذا العالم وحيداً ،
وستمضي وحيداً في الضباب .
« إشرّب كأسك إذن ، وأنت صامت : وحيد . لقد أعطت أيام الخريف
شفاهاً أخرى ، أقداحاً أخرى . وملأتها بخمرة مرة وعذبة كما سبق لها أن
ملأت كأسك .
« إشرّب كأسك وحدك . وإن كان لها طعم دمك ودموعك ، واحمد
الحياة على نعمة الظلم ، فإن قلبك من غير ظلم ليس إلا شطناً لبحر قاحل ،
لا نشيد فيه ، ولا جزر ولا مدّ .
« إشرّب كأسك وحدك : واشربها بفرح .

« إرفعها فوق رأسك . وعبّ منها نخب أولئك الذين يشربون وحدهم .
« لقد حدث لي مرة أن سعت في عشرة الناس . وجلست معهم إلى
الموائد . وشربت معهم كثيراً ، ولكنّ خمرهم لم تصعد إلى رأسي : ولا
سرت في جوفي . وإنما هوت فحسب إلى أقدامي : وتخلّلت عني حكمتي
مغاضبة . ونحمت على قلبي وأصبحت مغلقاً . ولم يبق سوى قدمي معهم في
دخانهم .
« ثم لم أسع من بعد قطّ في معاشرّة الناس . ولا شربت الخمر معهم على
مائدتهم .

« ولذلك أقول لك : ماذا وإن راحت حوافر الزمن تمرّ على صدرك
ثقيلة الوطء ؟ إنّ من الخير لك أن تشرب كأس أساك وحيداً ، فستشرب
كأس نعيمك وأنت وحيد أيضاً . »

١٠

و ذات يوم أقبل فردروس الأغرقي يتمشّي في الحديقة . فعثرت
قدمه بحجر . وسخط لذلك ، ثم دار والتقط الحجر . وقال بصوت خافت :
« يا لك من شيء ميت في طريقي ! » وقذف به بعيداً .
وقال المصطفى المختار ، الحبيب : « لماذا تقول : يا لك من شيء ميت ؟
هل قضيت زمناً طويلاً في هذه الحديقة على هذه الحال : وأنت لا تعرف أن
ليس فيها شيء ميت ؟ إن جميع الأشياء هنا تحيا وتتألق بضياء النهار وجلال
الليل . أنت والحجر شيء واحد . هنالك فرق وحيد في نبضات القلب : فإن

٢٠

قلبك ينبض على نحو أدق قليلاً . أليس كذلك يا صديقي ؟ إلا أنه لا ينطوي على هدوء الحجر .

« يمكن أن يكون لحفقه نغم آخر ، غير أنني أقول لك : إذا أنت سبرت أغوار روحك وقست أعالي الفضاء ، فإنك لن تسمع سوى أغنية واحدة ، والحجر والنجم يرتزمان بتلك الأغنية معاً في جوقة متكاملة منسجمة .
« وإذا كانت كلماتي لا تبلغ فهمك ، فدعها إذن إلى فجر آخر . وإذا كنت قد لعنت هذا الحجر الذي عثرت به في حمى عماوتك ، فهل تلعن النجم لو أن رأسك ارتفع حتى اصطدم به في السماء ؟ ولكن اليوم الذي تجمع به الحجارة والنجوم على نحو ما يجني الولد زنايق الوادي ، آت قريباً ، وعند ذاك ستعلم أن جميع هذه الأشياء مفعمة بالطيب والحياة . »

١١

وعندما بلغت أصوات الأجراس في المعبد آذانهم : وكان ذلك في اليوم الأول من الأسبوع ، تكلم أحدهم وقال : « إننا لنسمع في جوارنا يا معلم : كلاماً كثيراً عن الله ، ماذا نقول في شأنه ، ومن هو في حقيقة أمره ؟ » ووقف أمامهم كأنه شجرة شابة لا تنشى الريح ولا العاصفة ، وأجاب قائلاً : « فكمروا الآن : أيها الرفاق الأحباء ، في قلب يحوي قلوبكم جمعاء ، في حب يحيط بكل حب يخالكم ، في روح تغلف أرواحكم كلها ، في صوت ينطوي على أصواتكم جميعها ، في صمت أعمق من كل صمت تمرن به : فيما هو سرمدى .

٢١

« ثم حاولوا أن تدركوا في كمال ذاتكم جمالاً أبهى من جميع الأشياء
البهية . ونشيداً أرحب من أناشيد البحر والغابة . وجلالاً يقيم على عرش ،
كوكبة الجبار أمامه ليست سوى موطىء قدم . ويباه صولجان ليست حياله
نجوم الثريا سوى وميض لقطرات ندى .

« لقد قصرتم نشدانكم دوماً على المأكل والمأوى . على اللباس والأثاث ،
فانشدوا الآن « واحداً » لا هو بهدف لسهامكم . ولا بكهف حجري بقيكم
عوادي الطبيعة .

« وإذا كانت كلماتي صخرةً ولغزاً . فانشدوا . وليس هذا أقلّ
ما يطلب إليكم . أن تخضع قلوبكم وتنكسر ، وأن تسوقكم ضراعاتكم
إلى حبّ العليّ الأعلى وحكمته . إلى ذلك القدير الذي يدعوه الناس : الله . »
ونخيم الصمت عليهم جميعاً ، وسرت الخيرة إلى قلوبهم ، واضطربوا
في قرارة نفوسهم . وأشفق عليهم المصطفى . ونظر إليهم برقة وقال :
« لنقف الآن عن الكلام في شأن العليّ الأعلى . ربّ الأرباب . ولنتكلم عن
الأرباب من جيرانكم وإخوانكم ، وعن عناصر الطبيعة التي تثور حول
منازلكم وفي حقولكم .

« إنكم لتودون أن ترتفعوا بالخيال إلى النعيم . وتحسبون ذلك علواً ،
وتودون أن تعبروا البحر الرحيب وتدعون أن ذلك مسافة شاسعة : غير أنني
أقول لكم إنكم تبلغون . إذ تزرعون بذرة في الأرض . مكاناً أعلى .
وعندما تمجدون رواء الصباح لقرييكم . تقطعون بجرأ أرحب .

« إنكم تترنمون أكثراً الأحيان باسم الله السرمدى . غير أنكم لا
تسمعون . في الحقيقة . النشيد الذي تترنمون به . هلاً أصغيتم إلى أغاني
العضاير . إلى أنين الأوراق التي تنتزعها الريح عن الأغصان حين تهبّ
عليها . ولا تنسوا . يا أصدقائي . أن هذه لا تغني إلا عندما تفارق الأغصان !

« وإنّي لأكرر عليكم ما أمرتكم به . أن لا تتكلموا عن الله الذي هو الكلّ في الكلّ . من غير وعي أو تقدير . ولكن أخرى بكم أن يتحدث بعضكم عن بعض . ويفهم الواحد منكم الآخر . قريباً لقريب . وإلماً لإله . »
« بم يقتات الفرح في العشر إذا هجرته أمه وحلقت في أجواز السماء ؟ »
« وأنّى لشقيقة النعمان في الحقل أن تتكامل إذا لم تلقحها نخلة برحيق شقيقة غيرها ؟ »

« إنكم لا تشدون السماء التي تدعوها « الله » إلا عندما تضيقون في ذاتكم الصغيرة . هلاًّ جهدتم في أن تجدوا سبيل الرّشاد في ذاتكم الكبرى . هلاًّ سعيتم في أن تكونوا أقلّ كسلًا مما أنتم عليه وأخذتم في تعبيد الطرق ! »
« لقد كان من الأحكم . يا أصدقائي وبخاري . أن يقلّ كلامنا عن الله الذي لا نستطيع أن نفهمه . ويكثر حديثنا بعضنا عن بعض . إذ يتاح لنا أن نتفاهم . وكان يودّي أن تعرفوا . مع ذلك . أننا عبق الله وأريج طيبه . نحن الله في الورقة . في الزهرة . وأغلب الأحيان في الثمرة . »

١٢

وذات صباح . عندما ارتفعت الشمس . تقدم أحد التلامذة . وكان من أولئك الثلاثة الذين لعب معهم في أيام صباه . وقال له : « تهين ثوبي يا معلم ، وليس لديّ غيره . فاسمح لي أن أذهب إلى السوق وأساوم . على الحظّ بيتيخ لي أن أحصل على كساء جديد . »
حدث المظطفى . ملبّياً إلى الشاب وقال : « اعطني ثوبك » فخذ

الشاب ووقف عارياً في الهجرة .

وعند ذاك ، راح المصطفى يقول بصوت شبيه بالصوت الذي يحدث
مهراً يعلو على طريق : « العاري وحده يعيش في الشمس . والساذج وحده
يركب الريح . والذي يضيع عن طريقه ألف مرة ، هو الوحيد الذي يبلغ
منزلاً مطمئناً فيه .

« لقد تعب الملائكة من الحاذقين المدّرعين بالفضة . وجاءني البارحة
ملاك ، لم يأتي إلاّ البارحة ، وقال لي : « خلقتنا جميعاً لأولئك الذين
يتباهون . أي شيء يمحو المظهر المتع ، ويندب الشيء حتى يرده إلى
جوهره سوى النار ؟ »

« قلت : « ولكنكم تخلقون أيضاً ، إذ تخلقون الجحيم ، شياطين للقيام
بأمره . » فردّ الملاك قائلاً : « إنما يقوم على الجحيم أولئك الذين لا تنال
منهم النار . »

« يا للملاك الحكيم ! إنه يعرف سبيل الرجال وطرائق أنصاف الرجال .
إنه واحد من أولئك الأبرار الذين يأتون لمعونة الأنبياء حين يوسوس
لهم المخادعون الأذكىاء . ولا ريب أنه يتسم عندما يتسم الأنبياء ، ويبيكي
أيضاً عندما يبكون .

« العاري وحده ، أيها الأصدقاء والبحارون ، يعيش في الشمس .
والربّان الذي لا دفة له وحده هو الذي يركب البحر العباب ولا يبالي ،
وذو النفس المظلمة هو الذي يُظلم في الليل ويستيقظ مع الفجر ، والوحيد
الذي يدرك الربيع هو الذي ينام مع الجذور تحت الثلج .

« ذلك بأنكم تشبهون الجذور ، فأنتم بسطاء كالجلود ، ولكم مع ذلك
حكمة بالغة ، هي التي تستقونها من الأرض . وأنتم صامتون ، ولكن لكم
مع ذلك من أغصانكم التي لما تولد بعد ، جوة الرياح الأربع .

« أنتم واهون ، لا شكل لكم : ولكنكم مع ذلك بداية أشجار سامقة
جبانة ، ومستهلّ أدواح تناطح السحاب .
« أقول لكم ثانية وأكرر : لستم سوى جذور بين التراب والسموات
المتحركة . وكثيراً ما شاهدتكم ترتفعون لترقصوا مع النور . غير أنني رأيتمكم
أيضاً يخامركم الحياء وأنتم ترتفعون . وكل الجذور يخامرها الحياء . لقد أخفت
قلوبها زمناً طويلاً . فلا تعرف بعد ما تصنع بقلوبها .
« ولكن نواراً سيأتي . ونوار عذراء لا تعرف الراحة . وسيكون
منها أن تمنحوا على الروابي والسهول . »

١٣

وتقدّم إليه أحد الذين خدموا في المعبد ، ضارعاً وقال : « علمنا
يا معلم أن تكون كلماتنا مثل كلماتك . غناء للناس وطيباً عابقاً . »
أجابته المصطفى قائلاً : « سوف تسمو على كلماتك . ولكن طريقك
ستظلّ نغمًا وأرجاً : نغمًا للمحبين وكلّ من هم أحياء على السواء . وأرجاً
لأولئك الذين يودّون الحياة في بستان .
« بيد أنك ستسمو على كلماتك إلى ذروة يتناثر فوقها غبار النجوم
وستفتح يديك حتى تمتلكا . وعند ذلك ستضطجع وتغفو كما يغفو الفرح في
عش أبيض ، وتحلم بالغد كما تحلم البنفسجة البيضاء بالربيع .
« أجل ! وستغوص إلى أعماق من كلماتك . ستشدد يتابع الجداول
الثابتة : وستكون كهناً نخباً يردّد أصداً الأصوات الخافتة التي تتعالى في

الأعماق ، وأنت لا تسمعها الآن .

« ستفوص إلى أعماق من كلماتك ، إلى أعماق من كل الأصوات ، إلى قلب الأرض ، وهناك ستكون وحيداً « معه » ، مع ذلك الذي يسير أيضاً على المجرة . »

وبعد برهة . سألته أحد التلامذة قائلاً : « حدثنا أيها المعلم . عن الكون . ما هو ؟ »

نظر المصطفى إليه ملياً ، وشعر بالعطاف حبّ نحوه ، ثم وقف ، ومشى بضع خطوات بعيداً عنهم ، ثم عاد وقال : « هنا ، في هذه الحديقة يرقد أبي وأمي ، دفنتهما أبدي أحياء . وفي هذه الحديقة ترقد مدفونة بلذور الأمس . جاءت بها إلى هنا أجنحة الريح . وسيدفن أبوي هنا ألف مرة ، وألف مرة ستدفن البلور هنا . ولذلك سوف تأتي أنا وأنتم وهذه الأرواح معاً لألف سنة في هذه الحديقة ، كما نحن الآن ، ولسوف « نكون » نحب الحياة ، ونحلم بالمدى ، وننسى نحو الشمس .

« غير أن « الكينونة » الآن ، إنما هي أن تكون حكيماً ، لا غريباً مع ذلك ، عن المجنون ، أن تكون قوياً ولكن لا لتسيء إلى الضعيف ، وأن تلعب مع الأطفال ، لا كوالد بل كرفيق يود أن يتعلم ألعابهم .

« وهي أن تكون بسيطاً ووديعاً مع الطاعنين في السن من الرجال والنساء ، وتجلس معهم في ظلّ السندبانة العتيقة ، وإن كنت لا تزال تمشي مع الريح . « هي أن تسعى وراء شاعر وإن كان يعيش وراء سبعة أنهر ، وتهدأ في حضوره ، لا تريد شيئاً ، ولا ترتاب في شيء ، ولا تنبس شفتاك بسؤال .

« هي أن تعرف أن « القديس » والخطيئة أخوان توأمان ، أبوهما « الملك الغفور » . وأن أحدهما ولد قبل الآخر بلحظة فقط ، ولذا نحن ننظر

إليه على أنه أمير متوج .

« هي أن تتبع الجبال حتى وإن قادك إلى حافة الهاوية ، وهو ، وإن كان مجتحمًا وأنت بلا أجنحة . وإن مرّ فوق الهاوية . عليك أن تتبعه ، لأنه حيث لا جمال . لا شيء هناك .

« هي أن تكون بستانًا بلا جدران . وكرمًا بلا حارس : وخزانة كنز مفتوحة للعابرين .

« هي أن تكون سلبياً ؛ مخدوعاً ، مخيباً ، أجل ! ومضلاً . وقع في الفخ . ومع ذلك كله تنظر من علياء ذاتك الرحبة إلى ما هو دونك . وتبتسم عارفاً أن ثمة ربيعاً لا بدّ أن يأتي إلى كرمك ليرقص في أوراقه . وخريفاً لينضج عناقيده . عارفاً أنه لو ظلّ لديك شبك واحد مفتوح على الشرق . لن يفرغ منزلك أبداً . عارفاً أن جميع أولئك الذين اعتبروا أشراراً . ولصوصاً . ومحتالين . وغشاشين . إنما هم إخوتك في الفاقة . وأنتك ربما كنت هؤلاء جميعاً في نظر أهل تلك المدينة اللامنظورة . القائمة فوق هذه المدينة .

« والآن أوجه الكلام إليكم أيضاً أنتم ذوي الأيدي البارة التي تصوغ وتوجد جميع الأشياء اللازمة لرفاهية عيشنا في الليل والنهار : « الكينونة هي أن تكون حائكاً ذا أنامل تبصر . وعماراً واعياً للنور والمدي ، أن تكون حرّاناً وتشعر أنك تحبّ كثرًا في كل بذرة تزرعها . أن تكون صياداً وقناصاً ذا رافة بالسمكة والطريدة . وأن تكون إلى ذلك . أرأف بالجلائع والمحتاج من بني الإنسان .

« وأقول فوق كل شيء ما يلي : أريد أن يكون كل واحد منكم : كائناً من كان ، شريكاً وعوناً لغيره في تحقيق غايته الطيبة النبيلة « كونوا . يا أصدقائي وأحبائي . شجعاناً لا وديعين . رحاب الصدور

لا محدودين محصورين ، حتى إذا جاء أجلي وأجلكم كان في الحقيقة ،
ذاتكم الكبرى .

وانقطع عن الكلام ، وخيم على التسعة ظلام دامس ، وتحولت قلوبهم
عنه ، لأنهم لم يفهموا شيئاً مما قال :

وراح الرجال الثلاثة من البحارة يبحنون في تلك اللحظة إلى البحر ،
والثلاثة الذين كانوا يخدمون المبد ، يتوقون إلى سلو حالهم في حرمة ،
والثلاثة الذين لعبوا معه أيام صباه ، يتشوقون إلى مساحة السوق . كان الجميع
صُمّاً حيال كلماته ، لدرجة أن أصداءها كانت ترجع إليه ، كالطيور
المتعبة التي فقدت المأوى تحوم بحثاً عن ملجأ .

ومشى المصطفى بضع خطوات نأى بها عنهم في الحديقة ، دون أن يقول
شيئاً ، أو ينظر إليهم .

وراحوا يتشاورون فيما بينهم ويبحثون عن علر يرّر رغبتهم في الذهاب .
وهنا ، انصرفوا ، وذهب كل واحد منهم إلى مكانه ، وظلّ المصطفى
المختار ، الحبيب ، وحيداً ، فريداً . . .

١٤

وعندما أقبل الليل ، وضرب سراقه على الكون كله ، توجه نحو
المقبرة التي ترقد فيها والدته تحت شجرة الأرز التي كانت تتعالى شامخة ،
وهناك ، أطلّ طيف نور عظيم على السماء ، واثقلت الحديقة ابتلاقة حليلة
عالم صدر الأرض .

وصاح المصطفى : من قرارة الوحدة التي تلفّ روحه . وقال^١ :
« لقد أنقلت روحي بثمرتها الناضجة . من ترى يأتي ويأخذها ويكون
بها مسروراً ؟ أما هناك من صائم طيب القلب . كريم النفس . يأتي ويفطر
على أوت ناتج لي . ويخفف بذلك من عبء خطي ؟
« إن روحي تتدفق بخمرة العصور . أما هناك من ظامئ يأتي فيشرب ؟
« ها إن هناك رجلاً وقف على مفترق الطرق ، ويداه ممدودتان
للعابرين . وقد امتلأنا بالخليجيّ والجواهر . وهو ينادي المارة . قائلاً :
« ارثوا لحالي . وخذوا مني . أرجوكم باسم الله العليّ العظيم أن تأخذوا مني
ما في يدي وتواسوني .

« ولكن المارة كانوا ينظرون إليه فقط . وما فيهم من أحدٍ أخذ ما في يده .
« ولو أنه كان متسولاً يمدّ يده ليأخذ ! نعم ! يمدّ يداً مرتعشة ويرجعها
فارغة إلى حضنه ؛ لكان خيراً له من أن يمدّها ملأى بالعطايا الوافرة ؛ ولا
يجد من يتقبلها .

« ها إن هنالك أميراً أيضاً ذا لطف وأريحية ؛ ضرب خيامه الخيرية
بين الجبل والصحراء ؛ وأمر خدومه أن يشعلوا النار علامةً يهتدي بها الغريب
والثائر . كما وجّه عبيده إلى الأمكنة النائية والطرق الموحشة يراقبونها بحثاً
عن الضيوف . ولكنهم لم يجدوا فيها أحداً .

« ولو أن ذلك الأمير كان رجلاً عادياً لا يُعرف من أين أتى ولا كيف
أتى . راح ينشد القوت والمأوى . بل لو كان هو نفسه الثائر المعدم الذي لا
يملك سوى أسنانه وكشكوله . لكان خيراً له . وللقي عند انسداد الظلام
أشباهه من الشعراء والمشردين . وشاركهم في تسوّفهم وتذكاراتهم وأحلامهم .

١ ورد هذا المقطع بلغة جبران العربية في « المجموعة الكاملة لولغات جبران العربية » صفحة ٤٨٩
تحت عنوان « نفسي مثقلة بأثامها » التي طبعت في مطبعة دار صادر - بيروت .

«وها إن هنالك ابنة ملك عظيم ، استيقظت من سباتها وارتدت رداءها الحريري ، وتحلّت بلآلئها وجواهرها ، ونثرت المسك على شعرها ، وغمست أناملها في العنبر ، ثم نزلت من برجها العالي إلى حديقتها ، حيث احتفل الندى بمقدم حذائها الذهبي .

«وراحت ابنة الملك العظيم تنشد الحبّ . في الحديقة . خلال هدأة الليل ، ولكنّ أحداً من أبناء مملكة أبيها الواسعة ، لم يكن يحبّها .

«لقد كان من الأفضل لها أن تكون ابنة حرّاث ، جارة نعجتها في حقل ، وعند المساء تعود إلى منزل أبيها ، وغبار الطريق يعلو قدميها وعبير الكروم يفوح من ثنايا رداها ، حتّى إذا أقبل الظلام ، وخيم بأجنحته ملاك الليل على العالم ، تتسلّل إلى نعجتها وتتسلّل بها إلى نهر الوادي حيث ينتظرها حبيبها .

«بل إنّها لتودّ لو كانت راهبة في دير يحترق فؤادها بخوراً ، ويصاعد طيباً مع الريح . وتغني روحها شمعة في نور يصاعد نحو نور أسمى ، برفقة جميع أولئك الذين يعبدون والذين يُحبّون ويُحبّون .

«كان الأفضل لو أنّها امرأة من الطاعنات في السنّ ، تجلس تحت الشمس وتذكّر ذلك الذي شاركها أيام صباها .

«اشتدّ ظلام الليل ، وارتدّ وجه المصطفى مع الليل ، وأمست روحه غيمة مثقلة ، فصرخ ثانية :

« ناءت روحي بعبء ثمارها الناضجة .

ناءت روحي المثقلة بشمارها

من ذا الذي يأتي الآن فيقتات ويشبع ؟

إنّ روحي لتفيض بخمرتها

من ذا الذي يستقي الآن ويحسّي ويبرد من رمضاء الصحراء ؟

« ليتني كنت شجرة لا زهر لها ولا ثمر
فإنّ عناء الخصب أمرٌ من القحط
وعذاب الموسر الذي لا يجد من يأخذ منه
أكبر من عذاب المتسول الذي لا يجد من يعطيه

« ليتني كنت بشراً ناضبة ، جافة
والناس يلقون بي الأحجار
فإنّ ذلك أجدى وأخفّ حملاً من أن أكون ينبوع ماء حيّ .
يمرّ به الناس ولا يشربون

« ليتني كنت قصبة يلوسها المارّة بأقدامهم
فإنّ ذاك خير من أن أكون عوداً ذا أوتار فضيّة في بيت ليس لصاحبه
أنامل
وأولاده صمّ . »

١٥

ثمّ انقضت سبعة أيام وسبع ليالٍ ، لم يمر خلالها أحد . قرب الحديقة ،
وأقام وحيداً مع ذكرياته وعذابه . وذلك لأنّ الناس انصرفوا عنه ، ومضوا
ببحثون عن أماكن أخرى ينفقون فيها أيامهم ، حتّى الذين أصغوا إلى كلماته
بحبّ وأناة .

إلا أن كريمة وحدها أقبلت ، والصمت يعلو عجاها كأنه حجاب .
ويدها قلع وصحن ، ولحم وشراب ، ثم مضت لشأنها ، بعد أن وضعت
هذه الأشياء أمامه .

وعاد المصطفى إلى صحبة أشجار الحور البيضاء ، وجلس وراء بوابته
يتأمل الطريق ، وإذا به يبصر ، بعد برهة ، شبحاً كأنه غمامة لاهثة على
الطريق ، قد أقبل عليه . وانجلت تلك الغمامة عن الأشخاص التسعة ، وأمامهم
كريمة تقودهم .

تقدم المصطفى ولما قامهم على الطريق ، ومرّوا من البوابة ، وكان كل
شيء على ما يرام ، ثم مضوا كما لو أنهم تابعوا السير ، ولم ينقطعوا عنه سوى
ساعة .

دخلوا وتناولوا عشاءهم معه على مائدته البسيطة ، بعد أن أضافت كريمة
إليها بعض الخبز والسك وسكبت آخر ما لديها من خمر في الأقداح .
وفيما كانت تسكب ، توجهت للمعلم برّاءة قائلة : « اسمح لي أن أذهب
إلى المدينة ، وأبحث عن خمر أملأ بها الأقداح من جديد ، بعد أن نفذ ما
لديّ منها . »

ونظر إليها ، وكان في عينيه طيف رحلة وبلدٍ بعيد ، وقال : « لا !
إن هذا كافٍ حتى الساعة . »

وأكل الجميع وشربوا وكانوا في سرور ، حتى إذا فرغوا ، تكلم
المصطفى بصوت جهوريّ ، عميق كالبحر ، زاهر كالتيار الدافق في
ضوء القمر ، وقال : « يا أصحابي ! يا رفاق طريقي ، لا بُدّ لنا من أن نساfer
اليوم . لقد مضى علينا زمن طويل قطعنا به البحار المهلكة ، وتسلقنا الجبال
الوعرة وصارعنا العواصف . ولقد عرفنا الجوع ، غير أننا جلسنا أيضاً إلى
مآدب الأعراس ، وغالباً ما كنّا عراة ، ولكنّا ارتدينا أيضاً حلالاً ملكية .

ولقد سافرنا ، في الحقيقة ، إلى أماكن بعيدة ، ولكننا الآن نرحل . سنذهبون
معاً في طريقكم ، ولكن سأسلك وحدي في طريقي .

« وإنتنا سنظل » ، وإن كانت البحار والبراري الشاسعة متفصل بيننا ،
رفاق سفر إلى الجبل المقدس .

« غير أنني أود » ، قبل أن نمضي في مسالكنا الوعرة الشاقة ، أن أقدم
لكم حصاد قلبي ولقاطه :

« سيروا في سبيلكم وأنتم تغنون ، ولكن لتكن كل أغنية قصيرة
لأن الأغاني التي تموت باكراً على شفاهكم ، هي وحدها التي تعيش في
قلوب الناس .

« قولوا حقيقة جميلة في كلمات قليلة ، ولا تقولوا أبداً حقيقة قبيحة
أية كانت الكلمات . قولوا للفتاة التي يلمع شعرها في الشمس إنها بنت
الصباح . ولكن إذا شاهدتم الأعمى ، إياكم أن تقولوا له إنه هو والليل
شيء واحد .

« أصغوا إلى عازف الشبابة كما لو كنتم تصغون إلى نيسان ، ولكن إذا
أنتم سمعتم الناقدين والباحثين عن الزلات يتكلمون ، كونوا صمماً كأنكم
عظام جامدة ، وابتعدوا إلى أبعد ما يشطح بكم الخيال .

« يا رفاقي ويا أحبائي ! ستلاقون في طريقكم رجالاً ذوي أظلاف ،
فأعطوهم من أجنتكم ، وآخرين ذوي قرون ، فقدّموا لهم أكاليل غار ،
ورجالاً ذوي مخالب ، فأعطوهم أوراق زهر لأناملهم ، وآخرين ذوي
أسنة حادة ، فأعطوهم عسلًا لكلامهم .

« أجل ! ستلاقون هؤلاء جميعاً وأكثر . ستلاقون عرجاً يبيعون
العكاكيز ، وعمياناً يبيعون المرايا ، وستلاقون الأغنياء على أبواب المعابد
يتسوّلون .

« أعطوا العُرج من رشاقتكم ، والمُسني من بصركم ، وانظروا إذا كنتم تعطون من أنفسكم للأغنياء المتسولين ، فهؤلاء أفقر أهل الأرض ، لأن ما من رجلٍ يمدّ يده للصدقات إلا إذا كان حقيقة فقيراً ، وإن كان ذا أملاك وافرة .

« يا رفاقي ويا صحابي ! أوصيكم باسم الحبّ الذي يجمع قلوبنا ، أن تكونوا مسالك لا حصر لها يتلاقى بعضها مع البعض الآخر في الصحراء حيث تسير الأسود والأرانب ، وتطوف الذئاب والنعاج .

« واذكروا هذا عني ، أنا لا أعلمكم أن تعطوا ، بل أن تأخذوا ، ولا ألقنكم النكران بل الوفاء ، ولا الاستسلام بل الفهم بابتسامة على شفاهكم . أنا لا أعلمكم الصمت ، بل الغناء ولكن بصوت غير صاخب .

« أنا أعلمكم أن تحققوا ذاتكم الرحبية التي تسع الناس أجمعين . »
ونهبض عن المائدة ، وذهب يمشي في خطّة مستقيم نحو الحديقة ، وسار في ظلال السرو ، بينما كان النهار ينحدر إلى مغربه ، وتبعوه عن مسافة قريبة إذ كانت أفئدتهم مثقلة ، وألستهم معقودة .

وجاءته كريمة وحدها ، بعد أن طرحت فتات المائدة جانباً ، وقالت :
« أودّ يا معلّم أن تسمح لي بإعداد الزاد لرحلتك وغدك . »

نظر إليها بعينين تطلّ منهما عوالم أخرى غير هذا العالم ، وقال : « يا أخي ويا حبيبي ! الزاد مُحدّد منذ بدء الزمن . والطعام والشراب جاهزان للغد ، وحتى لأمسنا ويومنا .

« أنا ذاهب ، غير أنني إذا ذهبت ولديّ حقيقة لم أقلها بعد ، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشدائي وتلملمي ، وإن كانت عناصر جسمي قد تبدّدت في صمت الأبدية ، وأعود ثانية إليكم ، بحيث أستطيع أن أكلمكم من جديد بصوتٍ يرتفع من قلب ذلك السكون الأبديّ .

« وإذا كان ثمة شيء من جمال لم أصرّح به لكم : فسأدعى ثانية باسمي ،
أجل باسمي ذاته « المصطفى ». وسأعطيكم علامة تعرفون بها أنني رجعت
لأقول كلّ ما أنتم في حاجة إلى قوله ، لأن الله لن يأذن بأن يخفي على
الإنسان ، ولا أن تظلّ كلمته محجوبة في حفرة خفية من قلب إنسان .

« سأحيا وراء الموت ، وسأغني في أسماعكم
حتى بعد أن تحملني أمواج البحر وتعيدني إلى أعماق الخضمّ الأكبر .
وسأجلس إلى مائدتكم ، حتى من غير جسد
وسأذهب معكم إلى حقولكم ، روحاً غير منظورة .
سأتيكم إلى مواقدكم ضيفاً لا ترونه .
الموت لا يغيّر شيئاً سوى الأقنعة التي تغطي وجوهنا .
وسيظلّ الخطّاب خطّاباً
والحرّاث حرّاثاً

والذي يغني أغنيته للريح ، سيظلّ أيضاً يغنيها للأفلاك الدائرة .
وكان التلامذة صامتين صمت الحجارة . والأمسى يفعم قلوبهم ، لأنّه
قال « أنا ذاهب » ، غير أن أحداً منهم لم يضع يده في طريقه لإبقائه ،
ولا تبعه أحد ، وهو يخطو .

وخرج المصطفى من حديقة أمّه ، وكانت خطواته هادئة ، لا صوت لها .
وما هي إلا لحظة ، حتى انطلق مرتفعاً عنهم وابتعد ، كورقة ممزقة حملتها
الزّحازع ، وأبصروا من أثره ، كلّ ما أبصروه ، نوراً شاحباً يتحرك
في أجواز السماء .

وسار التسعة في طريقهم يبهطون ، ولكنّ المرأة ظلت واقفة في الليل
الزّاحف ، تشهد كيف أصبح النور والغسق شيئاً واحداً ، وراحت تواسي
وحدها ووحشتها بكلماته : « أنا ذاهب ، ولكن إذا أنا ذهبت ولديّ حقيقة

لم أقلها بعد ، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلممني ، وأعود إليكم مرة ثانية .

١٦

ثم وكان مساء .
وكان قد بلغ الروابي . وقادته خطاه إلى السديم ، ووقف وسط الصخور وأشجار السرو البيضاء ، محجوباً عن كل ما حوله ، فأخذ يتكلم قائلاً :
« أيتها الغمامة ، يا أختاه ، يا نسمة لم تشاهد بعد في قالب .
أعود إليك نسمة بيضاء لا صوت لها ،
وكلمة لم يفه بها أحد بعد .

« أيتها الغمامة ، يا شقيقتي المجنحة ، نحن الآن معاً
وسنظل معاً إلى أن يلتقيك يوم الحياة الثانية
قطرات ندى ، في الفجر ، على حديقة .
وأنا طفل في حضن امرأة
نتذكر ماضينا معاً .

« أيتها الغمامة ، يا أختي ! عدت قلباً يصغي إلى أعماقه ،
مطمئناً كقلبك
وشوقاً خافقاً لا هدف له مثلما هو شوقك
وفكرة لم تُجنّ بعد كفكرتك

« أيتها الغمامة ، يا أختي ، ويا بكر أمي !
يدي لا تزالان تحملان البذور الخضر التي أمرتني أن أنثرها .
وشفتاي مختومتان على الأغنية التي أمرتني أن أغنيها
وأنا لم آتِكِ بشمرة ، ولم أحملِ إليكِ أصداء
لأنّ يديّ كانتا عمياوين ، وشفتي لا تنبسان .

« أيتها الغمامة ، يا أختي ! أحببت العالم كثيراً ، والعالم أحبّتي
لأنّ بسماتي كلها كانت على شفاهه ، وكلّ دموعي في عيونه
وكان ، مع ذلك ، بيننا برزخ من صمت لم يضع فوقه جسراً
ولم أستطع من جانبي أن أعبره .

« أيتها الغمامة ، يا أختي ، يا شقيقتي التي لا يناها الموت
أنا أنشد الأناشيد العتيقة لأولادي الصغار
وهم ينصتون ، والدهشة تعلو وجوههم .
ولكن يمكن أن ينسوا الأنشودة غداً
وأنا لا أعرف إلى من سيحملها الريح
وهي وإن كانت ليست لي ، فإنّها بلغت فؤادي
وأقامت برهةً على شفتي .

« أيتها الغمامة ، يا أختي
رغم أن كل ذلك مضى وانقضى ، فلاني في سلام
لقد كان كافياً أن أغني لمن ولدوا
وإنّه ، وإن كان الغناء ليس لي في الحقيقة ،

ليرتفع من أعماق أشواق فؤادي

« أيتها الغمامة ، يا أخني الغمامة
أنا وأنت الآن شيء واحد
لم أكن ذاتاً منذ زمن طويل
الجلدران. انهارت
والسلاسل انكسرت
وأنا ارتفعت إليك
وسنُبهر معاً إلى أن يأتي يوم الحياة الثانية ،
عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقة ،
ويقلف بي طفلاً في حضن امرأة . »

